نفيسة وابنتيها وأمها. ثم التفت إلى علي وقال له كالساخر منه الراثي له: ولا تنتظر مالًا يا عليُّ فقد أتينا على مال عبد الرحمن كله حين زرناه، وانصرف الآن فإن لي مع خالد حديثًا لا أحب أن تسمعه ولا أن ينبئك به. قال علي وهو ينتحب: فإنك ساخط عليَّ يا سيدنا؟ قال الشيخ: أعوذ بالله من ذلك! وإنما أريد أن أتحدث إلى خالد حديثًا لا ينبغي أن يعلمه غيره، انصرف مصاحبًا. قال عليٌّ: سأنصرف طاعة لأمرك، ولكني لست راضيًا. قال الشيخ: سترضى. وخرج علي متثاقلًا كالخزيان. فلما خلا الشيخ إلى خالد، قال له: ستكون برًّا بنفيسة وأمها يا بني. قال خالد: فقد أعطيت على ذلك عهد الله يا سيدنا، وأنا أجدده. قال الشيخ: وأول البر بها أن تطلقها. فوجم خالد لهذا القول، ولكن الشيخ مضى يقول: إنها لا تصلح لك زوجًا، ولا تصلح زوجًا لأحد، وما ينبغي لها أن تحمل ولا أن تلد، فطلقها فتحسن إليها وإلى نفسك. إنك ستتزوج، وستتزوج من بنت مسعود، وستتزوجها بعد عام أو عامين، لأنها لم تبلغ طور الزواج بعد. فإذا تزوجتها فلا تفرض عليها ضرة، فإنها لن تحتمل الضرائر، ولا تمسك نفيسة في هذا الزواج العقيم، ولا تكلف نفسك عدلًا لا تطيقه وقلما يطيقه الناس. طلق نفيسة يا بنيَّ واضممها مع ذلك إلى أهلك، وسر معها سيرتك مع أختك، واستقبل حياتك مباركًا موفورًا. وترحم عليَّ كلما أصابك خير، واستغفر لي كلما امتحنتك الأيام بما تكره فإني لم آلُكَ نُصْحًا. ثم مسح رأسه وقبل بين عينيه وقال: انصرف راشدًا، فسنصلي ونقيم الذكر، وسنذكركم في صلاتنا ودعائنا، وسنستنزل رحمة الله على عبد الرحمن.

وأتمت المدينة شهر الصوم كما بدأته سعيدة راضية، واستقبلت عيد الفطر هانئة ناعمة، ولكنها ارتجت وارتج معها الإقليم كله في اليوم الثالث من أيام العيد؛ فقد صلى الشيخ بأصحابه المغرب، حتى إذا أتم الركعة الثالثة وجلس للتشهد لم يَرُعِ الناس إلا أن رأوه يكب على وجهه قبل السلام، فيسرعون إليه فإذا هو قد صار إلى رضوان الله. ومنذ ذلك الوقت لم يشك أحد من أهل المدينة ولا من أهل الإقليم في أن الله قد آثر الشيخ بهذه الكرامة، فنقله إلى جواره أثناء الصلاة، وأقره في جنته بين الصديقين والشهداء.